وزارة التعليم العالي والبحث
العلمي
جامعة بغداد
كلية العلوم الإسلامية

مجلة كلية العلوم الإسلامية

فكرية – فصلية - محكمة
تصدرها

كلية العلوم الإسلامية

جامعة بغداد

العدد: ٣

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد: (٦٣٣) لسنة ١٩٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

دراسات في سورة الاخلاص

الدكتور خليل ابراهيم حمودي السامرائي
استاذ النحو واللغة المساعد / كلية العلوم الاسلامية – جامعة بغداد

مُقدِّمة

الحمدُ للّهِ الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً. والصلاة والسلام على سيدنا محمد المؤيَّد بهذا النور، وعلى آله الطاهرين وصحبه الطيبين، ومَن اهتدى بهديهم الى يوم الدين.

وبعد، فقد أنزل اللّهُ سبحانه وتعالى كتابه المبين على نبيّه الكريم ﷺ ليدُلَّ على صدق نبوته، فتحدّى العرب والخلق كلّه أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ثمّ تحدّاهم أن يأتوا بعشر سور من مثلِهِ ثم تحدّاهم أن يأتوا بسورة من مثله. وهذا التحدّي يشمل قصار السور كما يشمل طوالها.

بُهِرَ العرب حينما سمعوا القرآن، وعجزوا ان يحاكوه، أو لن يأتوا بسورة من مثله، وهم اصحاب لغة وبلاغة. فلم يجدوا أمامهم إلاّ أن قالوا ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ (المدثر-٢٤) وقالوا ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (سبأ-٤٣). فما سر هذا الكتاب الذي تأثروا بروعةِ الفاظهِ وجمال تناسقها وقوة معانيه، وبما في عباراته من بلاغة تأخذ الالباب وتأسر القلوب. وهذا البحث الذي بين يدي القارىء الكريم محاولة ثانية(١) في رحاب القرآن الكريم.

---

(١) كانت المحاولة الاولى : (دراسة في سورة الضحى).

وقد اقتضت طبيعة العمل في هذا البحث أن أقسمه على اربعة محاور قدمت لها بتمهيد وسمتُهُ بـ (بين يدي السورة) تحدثت فيه عن سورة الاخلاص، من حيث سبب نزولها وفضائلها، اما المحاور فهي :-

١- القراءات القرآنية في سورة الاخلاص.
٢- الدراسة النحوية (اعراب السورة).
٣- الدراسة الصوتية.
٤- الدراسة الفنية.

وأخيراً، فهذا جهدُ المقل، واني لارجو من اللّهِ سبحانه وتعالى أن اكون قد وفقت في اسداء خدمة الى كتابه المبين.

فهو نعم المولى ونعم النصير

– بين يدي السورة –

هذه السورة مكية، وعدد آياتها اربع، نزلت على النبي ﷺ بمكة[١]. وقيل في سبب نزولها : إن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ : يا محمد انسب لنا ربّكَ، وصِفْهُ لنا، ما هو؟ ومِنْ أيّ شيءٍ هو؟ فأنزل اللّهُ تعالى ﴿قل هو الله احد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً احد﴾[٢].

وقيل نزلت بسبب سؤال اليهود الرسولَ ﷺ، إذ قالوا : يا محمدُ، هذا اللّه خلَق الخلْقَ، فمَن خلقَ اللّه، فغضب النبي ﷺ حتى انتقع لونهُ، ثم ساورهم غضباً لربه، فجاءه جبريل عليه السلام فسكّنه، وقال : اخفض عليك جناحك يا مُحمد، فقد نزل من اللّه جواب ما يسألونك عنه، قال : يقول اللّه : قل هو الله احد. اللّه الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفُواً احد[٣].

---

(١) اختلف في كونها مكية او مدنية، وفي عدد آياتها هل هو اربع أو خمس. ينظر : حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٨/٤٠٠.

(٢) ينظر : جامع البيان ٣٠/٢٢١، تفسير ابن كثير ٧/٤٠٣، والدر المنثور – للسيوطي ٨/٦٧٠.

(٣) ينظر : جامع البيان ٣٠/٢٢١، والتفسير الكبير – للرازي ٣٢/١٧٥.

وقيل : جاءَ ناسٌ من اليهود الى النبي ﷺ، فقالوا : صف لنا ربك فإنَّ اللّه أنزل نعته في التوراة، فأخبِرنا : من اي شيء هو ؟ ومن أيّ جنس هو ؟ وهل يأكل ويشرب؟ وممن ورثَ الدنيا ومَن يُورثها ؟ فأنزل الله تبارك وتعالى هذه السوة، وهي نسبة اللّه خاصة(١).

وقيل انها نزلت بسبب سؤال النصارى النبيّ ﷺ عن ربّه إذ جاء وفدٌ من نجران، فقالوا له : صف لنا ربك : أمن زبرجد ؟ أو ياقوت، أو ذهب، أو فضة ؟ فقال : إن ربيّ ليس من شيء، لأنه خالق الاشياء، فنزلت هذه السورة(٢). وربّما يكون سبب نزولها هذه السؤالات مجتمعة – والله اعلم – لأن فكرة هذه السؤالات كانت موجودة في اذهان هؤلاء جميعهم، من يهود، ونصارى، ومشركين لمعرفة الاله الذي يدعوهم الى عبادته محمدٌ ﷺ اذ كانت هناك افكار ومعتقدات سائدة قبل بزوغ نور الاسلام. فاليهود قالوا : عزيرٌ ابن الله والنصارى قالوا : المسيح ابن الله. والمجوس يعبدون الشمس والقمر.

والبراهمة عندهم التعدد الذي لا يحصى. ومشركو العرب عبدوا الاصنام والاوثان، وقالوا : الملائكة بنات الله. كل هذه المعتقدات وغيرها أكذَبَ الله سبحانه وتعالى اصحابها ومعتنقيها، فقال عزّ من قائل ﴿لم يلد ولم يولد﴾. إنّ لهذه السورة أهمية كبيرة، لانها جاءت مصرحة بالتوحيد ومثبتة وحدانيته جلّ وعلا، ومؤكدة انحصار المعبودية للباري عزّ وجلّ، ومشتملة – مع قصرها – على جميع معارف الذات الالهية، ورادّة على من انكرها والحدَ فيها.

وذُكِر في فضائل هذه السورة أن قراءتها تعدل ثلث القرآن فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال في قراءة ﴿قل هو الله احد﴾ : (والذي نفسي بيده إنّها لتعدلُ ثلث القرآن)(٣). وعنه ايضاً رضي الله عنه، أن الرسول ﷺ قال لاصحابه : (أيعجزُ أحدُكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة، فشقّ ذلك عليهم، وقالوا : أيّنا يطيق ذلك يا رسول الله، فقال: قل

---

(١) ينظر : اسباب النزول – الواحدي ص٢٦٢.

(٢) ينظر : التفسير الكبير – للرازي ١٧٥/٣٢.

(٣) صحيح البخاري ١٤٢/٣ – ١٤٣. سنن الترمذي بشرح تحفة الاحوذي ٢٠٦/٨.

هو اللّه احد اللّه الصمد ثلث القرآن)[١] والمقصود بذلك أنها تعدل ثلث القرآن بثواب قراءتها، لانها تحث على توحيد اللّه عز وجل، وتفيد معرفته، وبراءته عن كلّ ما لا يليق بذاته العلية. وقال الرازي في سبب فضلها وكون قراءتها تعدل ثلث القرآن : (ولعل الغرض منه أنّ المقصود الاشرف من جميع الشرائع والعبادات معرفة ذاته ومعرفة صفاته، ومعرفة أفعاله، وهذه السورة مشتملة على معرفة الذات؛ فكانت هذه السورة معادلة لثلث القرآن)[٢]. ولاهميتها وفضلها سميت هذه السورة بأسماء او صفات أو ألقاب عدة، ولا شك في أن هذه الكثرة من الاسماء أو الالقاب تدل على مزيد الفضيلة[٣]، ومن هذه الاسماء :

سورة (الاخلاص) لما فيها من التوحيد، و (قل هو الله احد) وسورة (الاساس) لاشتمالها على اصول الدين، وسورة (التفريد) وسورة (التجريد)، وسورة (النجاة) لانها تنجي المؤمن عن التشبيه والكفر في الدنيا وعن النار في الاخرة، وسورة (النسبة) لما مرّ أنها وردت جواباً لسؤال مَن قال للرسول ﷺ : انسب لنا ربك، وسورة (المعرفة)، وغير ذلك من التسميات[٤].

المحور الاول

القراءات القرآنية في سورة الاخلاص

وردت في قسم من حروف هذه السورة قراءات قرآنية، قرأها الجمهور بصيغة معينة، بينما قرأها قرّاء آخرون بصيغة اخرى حسب ما تلقوه من شيوخهم عن النبي ﷺ. فقد قرأ عامة القراء ﴿قل هو اللّه أحد﴾ بذكر الفعل ((قل))، وقرأ عبد اللّه بن مسعود،

---

[١] المصدر نفسه ١٤٥/٣.

[٢] التفسير الكبير ١٧٦/٣٢-١٧٧.

[٣] ينظر المصدر نفسه ١٧٥/٣٢.

[٤] لمعرفة المزيد عن ذلك ينظر : التفسير الكبير ١٧٥/٣٢ - ١٧٦، وحاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٤٠٠/٨.

وأبي بن كعب، والاعمش رضي الله عنهم ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ من غير الفعل ((قل))(١) وقرأ جمهور القراء ((أحدٌ)) في حين قرأ عبد الله بن مسعود والاعمش ﷺ ((الواحد))(٢). وذكر الماوردي في قراءة (احد) على النكرة، وجهين :

الاول :- أن لام التعريف حذفت على نية اضمارها، والتقدير : قل هو الله الأحد.

الثاني :- أن المراد هو التنكير، وذلك على سبيل التعظيم (٣).

وقرأ الجمهور : ((احدٌ اللّهُ)) بتنوين (أحد)، بينما قرأ : أبان بن عثمان، والحسن البصري، وزيد بن علي، ونصر بن عاصم، وابن سيرين، وأبي اسحاق، وأبو السمال وابو عمرو في رواية يونس، ومحبوب والاصمعي، وآخرون : (أحدُ اللّه) بحذف التنوين(٤) واختلاف هاتين القراءتين أدى الى تغيير في المقاطع الصوتية فعلى قراءة الجمهور يكون المقطع الثالث من قوله تعالى ((احدٌ اللّه)) مقطعاً قصيراً، بينما في القراءة الاخرى التي بغير التنوين يكون المقطع الثالث طويلاً مغلقاً فضلاً على نقصان مقطع قصير فيها، واليك رسم المقاطع على وفق القراءتين.

اولاً :- قراءة الجمهور بتنوين (أحد) :

| ء ـَـ | ح ـَـ | د ـُـ | ن ـِـ ل | ل ـَـ | هـ ـُـ ص |

ثانياً :- القراءة الاخرى بحذف التنوين :

| ء ـَـ | ح ـَـ | د ـُـ ل | ل ـَـ | هـ ـُـ ص |

فالاولى تكونت من ستة مقاطع، والثانية تكونت من خمسة مقاطع. والقياس مع قراءة الجمهور بالتنوين وتحريكه بالكسر، هكذا (احدنِ اللّهُ)، لان التنوين من (أحد) ساكن، ولام المعرفة من لفظ الجلالة ساكنة ايضاً، ولما التقى ساكنان، حرك الساكن الاول منهما

---

(١) ينظر : مختصر القراءات الشاذة لابن خالويه ص١٨٢، الكشاف ٢٩٨/٤، وروح المعاني للالوسي ٢٧٣/٣٠.

(٢) ينظر : مختصر القراءات الشاذة لابن خالويه ص١٨٢، والتفسير الكبير – للرازي ١٧٩/٣٢.

(٣) ينظر : التفسير الكبير ١٧٩/٣٢.

(٤) ينظر : معاني القران – للفراء ٣٠٠/٣، جامع البيان للطبري ٢٢٢/٣٠، معاني القرآن واعرابه – الزجاج ٢٧٧/٥.

بالكسر . وأما على قراءة مَن قرأ بترك التنوين، فأنما حذفت للتخلص من التقاء الساكنين وهما التنوين ولام التعريف. وهذا موجود في كلام العرب، واكثر ما يوجد في الشعر(١). وقال الفرّاء : والذي قرأ ((احدُ اللّه)) بحذف التنوين من (أحد) يقول : النون نون الاعراب إذا استقبلتها الألف واللام حذفت، وكذلك إذا استقبلها ساكن، فربما حذفت بالوجه. قد قرأت القرّاء ﴿وقالت اليهود عزيرُ ابن الله﴾ (التوبة-٣٠) ((وعزيرٌ ابن الله)) والتنوين أجود، وانشدني بعضهم :

لتجدَنّي بالأميرِ برّا   وبالقناةِ مِدْعاً مِكَرّا
إذا عطيفُ السلميّ فرّا

وانشدني آخر :

كَيْفَ نَوْمي على الفراش ولمّا   تَشْمَل الشامَ غارةٌ شَعْواءُ
تُذْهِلُ الشيخَ عَنْ بنيه وتُبدي   عن خدامِ العقيلةُ العذراءُ

اراد ((عن خدامٍ العقيلةُ العذراءُ)). وليس قولهم : ((عن خدامِ عقيلةٌ عذراء بشيء))(٢) فقد حذف التنوين لالتقاء الساكنين، لان التنوين شابه حروف اللين في أنه يزاد كما يزدن، فلما شابهها أجرى مجراها في أنها تحذف ساكنة لالتقاء الساكنين كما في قولنا: ((غزا القوم)) و ((يغزو القوم)) و ((يرمي القوم))، فهكذا حذفت هنا في ((أحدُ اللّه)) لالتقاء الساكنين، كما حذفت هذه الحروف. جاء في شرح المفصل: ((...أي (عن خدامٍ العقيلةُ)، فحذف التنوين لالتقاء الساكنين، لأنه ضارع حروف اللين لما فيه من الغنّة، والقياس تحريكه))(٣) وقرأ ابو عمرو ايضاً، وهارون، واخرون: ((احدْ اللّهُ)) باسكان الدال(٤). وجاء في كتاب السبعة عن ابي عمرو قوله : ((ادركت القرّاء يقفون على (أحدْ)، وكذلك كانوا يقرؤونها (احدْ اللّهُ الصمدُ))(٥) ويمكن توجيه ذلك، بأن العرب قد تُجرى

---

(١) ينظر : البحر المحيط ٥٢٨/٨، وروح المعاني ٢٧٥/٣٠.

(٢) معاني القرآن - للفراء ٣٠٠/٣، وينظر : جامع البيان ٢٢٢/٣٠، واعراب القرآن للنحاس ٣١٠/٥. شرح المفصل ٣٦/٩، البحر المحيط ٥٢٨/٨، روح المعاني ٢٧٥/٣٠.

(٣) شرح المفصل ٣٦/٩، وينظر : التفسير الكبير ١٧٩/٣٢.

(٤) ينظر : كتاب السبعة - لابن مجاهد ص٧٠١، والتفسير الكبير ١٧٩/٣٢.

(٥) السبعة ص٧٠١.

الفواصل في الادراج مَجْراها في الوقف، جاء في تفسير الرازي : ((قال ابو علي(١) : قد تجرى الفواصل في الادراج مَجْراها في الوقف))، وعلى هذا قال مَن قال : ((فأضلونا السبيلا. ربّنا – ٦٧،٦٨ – الاحزاب)) ((وما ادراك ما هيه. نار . القارعة – ١٠،١١)) فكذلك (احدُ اللّهُ) لما كان اكثر القرّاء فيما حكاه ابو عمرو على الوقف أجراه في الوصل مجراه في الوقف لاستمرار الوقف عليه وكثرته في ألسنتهم(٢) وقال بعض الباحثين : ((وقد يكون ترك التنوين جاء لغرض التناسب والمشاكلة))(٣) وقرأ ابن كثير، وابن عامر، ونافع، وعاصم، وشعبة، والكسائي، وابو عمرو في رواية اليزيدي: ((كُفُؤ)) بضم الفاء مهموزة في قوله تعالى ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾(٤) وقرأ حمزة، ونافع في رواية، ويعقوب الحضرمي، وخلف وقالون واخرون :((كُفْئاً)) باسكان الفاء والهمزة(٥). وقرئ ((كُفْواً)) خفيفاً غير مهموز، و((كِفْواً)) بكسر الكاف مع اسكان الفاء وعدم الهمز(٦) وقرأ نافع في رواية ((كُفَا)) من غير همز، أي : نقل حركة الهمزة الى الفاء، وحذف الهمزة(٧) وقرأ سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس ﷺ (كِفَاء) بكسر الكاف، وفتح الفاء والمد، كما في قول النابغة الذبياني:

لا تقذفَنّي بركنٍ لا كفاء له وإن تأثّفك(٨) الاعداءُ بالرّفَد

وكل ذلك لغات في ((كفو)) والمعنى واحد(٩).

---

(١) ابو علي الفارسي.

(٢) التفسير الكبير ١٧٩/٣٢.

(٣) من وحي القرآن – د. ابراهيم السامرائي ص١٣٩.

(٤) السبعة ص٧٠١.

(٥) ينظر : السبعة ص٧٠٢، اعراب النحاس ٣١١/٥، الحجة – لابن ابي زرعة ص٧٧٧، والبحر المحيط ٥٢٨/٨.

(٦) ينظر : الكشاف ٢٩٨/٤، والبحر المحيط ٥٢٨/٨، وروح المعاني ٢٧٧/٣٠.

(٧) ينظر : البحر المحيط ٥٢٨/٨، وروح المعاني ٢٧٧/٣٠.

(٨) أي : اجتمع الاعداء.

(٩) ينظر : اعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم – لابن خالويه ص٢٣١، والبحر المحيط ٥٢٨/٨، ولسان العرب مادة (كفا)، وروح البيان ٢٧٧/٣٠.

المحور الثاني

الدراسات النحوية

– اعراب السورة

﴿قل هو الله احد﴾ اختلف اهل العربية في اعراب الضمير ((هو)) فقيل : هو ضمير الشأن. أو الامر والحديث. وهو في محل رفع مبتدأ. ولفظ الجلالة ((الله)) مبتدأ ثان، و ((أحد)) خبره، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل رفع خبر للمبتدأ الاول. والمعنى : الشأن، أو الامر : اللهُ أحد(١).

وهذه الجملة التي وقعت خبراً عن ضمير الشأن لا تحتاج الى رابط يعود الى المبتدأ لانها عين المبتدأ. وقد وقعت مفسرة له. وهذه الجملة لا يجوز ان تتقدم على المبتدأ الذي هو ضمير الشأن لأنَّ المفسَّرَ يقتضي ان يكون بعد المفسِّر. فلذلك لا يجوز ان تتقدم عليه.

وقيل : الضمير ((هو)) كناية عن ذكر الله عزّ وجلّ، وهو في محلّ رفع مبتدأ. والذي جوّز وقوع الكناية في اول الكلام. لانه جرى جواباً على سؤال فقد سألوه ﷺ أن يصف لهم ربَّهُ، إذ قالوا له : أنسب لنا ربّك. ولفظ الجلالة ((اللّه)) خبره، أي الذي سألتم عنه : هو اللّه(٢) و((احد)) خبرٌ بعد خبر. وجوّز بعضهم أن يكون بدلاً من لفظ الجلالة ((اللّه))(٣) على ما هو المختار من جواز ابدال النكرة المحضة من المعرفة عند حصول

---

(١) ينظر : معاني القرآن واعرابه – للزجاج ٣٧٧/٥، مشكل اعراب القرآن – لمكي القيسي ٥٨٣، البيان في غريب اعراب القرآن – لابي البركات بن الانباري ٥٤٥/٢، البحر المحيط ٥٢٨/٨، روح المعاني– للالوسي ٢٦٩/٣٠، وروح البيان للبرسوي ٥٣٦/١٠.

(٢) ينظر : معاني القرآن واعرابه – للزجاج ٣٧٧/٥، مشكل اعراب القرآن – لمكي القيسي ٥٨٣، البيان في غريب اعراب القرآن – لابي البركات بن الانباري ٥٤٥/٢، البحر المحيط ٥٢٨/٨، روح المعاني– للالوسي ٢٦٩/٣٠، وروح البيان للبرسوي ٥٣٦/١٠. اعراب ثلاثين سورة – لابن خالويه ص٢٢٨، واعراب القرآن – للنحاس ٣٠٨/٥.

(٣) ينظر : معاني القرآن – للاخفش ٥٤٩/٢، اعراب ثلاثين سورة – لابن خالويه ص٢٢٨، واعراب القرآن – للنحاس ٣٠٨/٥.

الفائدة على ما ذهب اليه ابو علي(١) وجوز بعضهم ان يكون ((أحد)) خبراً لمبتدأ محذوف، والتقدير: هو أحد(٢) وجوز بعضهم ان يكون الاسم الاعظم بدلاً من الضمير ((هو))، و((أحد)) ضمير المبتدأ (٣) وقد ذهب الكسائي الى ان الضمير ((هو)) عماد، بمنزلة الهاء في قوله تعالى ﴿إِنَّهُ أَنَا العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ (النمل-٩) وجعل ((أحد)) خبراً للفظ الجلالة(٤). وهذا قول ضعيف، لان العماد أو ضمير الفصل -كما هو معروف- يقع بين المبتدأ والخبر، أو ما أصله مبتدأ وخبر(٥). وقد انكر الفرّاء قول الكسائي لان ضمير الفصل لم يسبقه شيء فقال: ((ولا يكون العماد مستأنفاً به، حتى يكون قبله (أنّ) أو بعض أخواتها. أو (كان)، والظن))(٦). والذي ارجحهُ من هذه الاقوال، الاول، وهو كون ((هو)) ضمير شأن وذلك أنّه إذا وقع في صدر الجملة فالمراد منه الاهتمام بما بعده، لانه يُفسَّرُ بما بعده ؛ لذلك فالسامع إذا سمع الضمير ولم يكن قد سبقه ما يعود عليه، يبقى ينتظر الكلام الذي يأتي بعده ليوضحهُ ويزيل ابهامه. جاء في روح المعاني: ((والسّرُّ في تصديرها به، التنبيه من أول الامرِ على فخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة التحقيق والتقرير، فأن الضمير لا يفهم منه من أول ألامر الا شأن مبهم له خطر جليل، فيبقى الذهن مترقباً لما أمامهُ مّما يفسّره، ويزيل ابهامه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن))(٧). فالمعنى يكون: الشأن والحديث، أو الامر والخبر العظيم هو أنّ اللّه أحدٌ، وعليه يكون ((هو)) مبتدأ، والجملة بعده من قبيل ما الخبرُ فيه عين المبتدأ. فلا تحتاج الى رابط يعود اليه، جاء في شرح التصريح: ((والجملة أما نفس المبتدأ في المعنى فلا تحتاج الى رابط يربطها

---

(١) ينظر: روح البيان ٥٣٦/١٠.

(٢) ينظر: الكشاف ٨١٧/٤، البحر المحيط ٥٢٨/٨، وجامع الاحكام ٢٤٤/٢٠ وروح المعاني ٢٧١/٣٠،

(٣) ينظر: البيان في غريب اعراب القران ٥٤٥/٢، التبيان للعكبري، روح المعاني ٢٧١/٣٠.

(٤) ينظر: معاني القران للفراء ٢٩٩/٣، وجامع البيان ٣٠/ ٢٢٢.

(٥) ينظر: مغني اللبيب ٤٩١/٢ – ٤٩٥.

(٦) ينظر: القران – لفراء ٢٩٩/٣، وينظر: جامع البيان ٢٢٢/٣٠. وجاء في شرح المفصل ((فأما قوله تعالى ﴿قل هو الله أحد﴾ فقد قال جماعة من البصريين والكسائي من الكوفيين: إن (هو) ضمير الشأن...الخ)) ١١٤/٣.

(٧) روح المعاني ٢٦٩/٣٠ .

بالمبتدأ... نحو (هو اللّهُ أحد). إذا قُدّر (هو) ضمير شـأن فهو مبتـدأ، و (اللّهُ أحد) جملـة خبره، وهي عينه في المعنى، لانها مفسرة له والمفسّر عين المفسَر، أي : الشأن اللّهُ أحد ولا يكون ضمير الشأن لحاضر، وانّما يكون ضمير غيبة، مفسّراً بجملة بعده، خبرية مصرّح بجزئيها، فأن كان بلفظ التذكير سميّ ضمير الشأن، وإن كـان بلفظ التأنيث سـميّ ضمير القصة وقد سميّ بهما))(١). وهذه التسمية بصريّة. أمـا الكوفيون فيسمّونه (ضمير المجهول) لانه لم يتقدّمـه اسم يعود اليه(٢). والعرب تستعمل هذا الضمير في مواضع التفخيم والتعظيم. كما هو الحال في استعماله في هذه السورة الكريمة، حيث ابتدأ بـه، فحصل بسبب ذلك ابهام فُسّر بما بعده، قَصد منـه تعظيم الامر وتفخيم الشأن الذي يليق بعظمة البارّي ﷻ الذي كانت نفوس السائلين متطلعة الى معرفة ذاته جلّ وعلا، وفهم مـا يأتي بَعْدَ هذا الضمير. جاء في شرح المفصل :-

((اعلم أنّهم إذا أرادوا ذِكْرَ جملة من الجمل الاسمية، أو الفعلية – فقد يقدمون قبلها ضميراً يكون كناية عن تلك الجملة، وتكون الجملة خبراً عن ذلك الضمير وتفسيراً لـه. لأنّهم يريدون الامر والحديث، لأن كلّ جملةٍ شأنٌ وحديثٌ، ولا يفعلون ذلك إلاّ في مواضع التفخيم والتعظيم، وذلك قولك (هو زيد قائم) فـ (هـو) ضمير لـم يتقدمـه ظـاهر، انمـا هـو ضمير الشأن والحديث، وفسره ما بعده من الخبر، وهو (زيد قائم) ولم تأتِ في هذه الجملة بعائد الى المبتدأ، لانها هو في المعنى. ولذلك كانت مفسرة له... ويجيء هذا الضمير مع العوامل الداخلة على المبتدأ، نحو (إنّ واخواتها) و (ظنّ واخواتها) و (كان واخواتها) وتعمل فيه هذه العوامل... تقول (إنّه زيدٌ ذاهب) فالهاء ضمير الامر و (زيد ذاهب) في موضع خبر الامر))(٣). وجاء في الطراز : ((إنّ ضمير الشأن والقصة على اختلاف احواله أنما يرد على جهة المبالغة في تعظيم تلك القصة وتفخيم شأنها، وتحصيل البلاغة فيه من جهة اضماره أولاً وتفسيره ثانياً لأنّ الشيء إذا كان مبهماً فالنفوس متطلعة الى فهمه ولها تشوق اليه))(٤).

---

(١) شرح التصريح ١/١٦٢-١٦٣.

(٢) ينظر : شرح المفصل ٣/١١٤، ومعاني النحو ١/٦٢-٦٣.

(٣) شرح المفصل ٣/١١٤.

(٤) الطراز ٢/١٤٢، وينظر : البرهان ٢/٤١٠.

- ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾

وفي اعراب هذه الاية الكريمة ايضاً أقوال (١) :

الاول :– أن يكون الاسم الكريم مبتدأ، و((الصمد)) خبره.

الثاني :– أن يكون الاسم الجليل مبتدأ، و((الصمد)) نعته، والخبر ما بعده.

الثالث :– أن يكون الاسم العزيز : مبتدأ، و ((الصمد)) خبر لمبتدأ محذوف، والجملة خبر عن ((اللّه)) جلّ ذكره.

الرابع :– أن يكون لفظ الجلالة بدلاً من ((احد)).

الخامس :– أن يكون لفظ الجلالة بدلاً من اسم ((الله)) الاول، وانما وقع هذا التكرير لفائدة التعظيم والتفخيم، وهذا كلام العرب، أنها عندما تعظم شيئاً تكرره ولا تضمره، كما قال الشاعر(٢) :

لا أرى الموتَ يَسبقُ الموتَ شيءٌ   نَغّصَ الموتُ ذا الغنى والفقيرا

فعظّمَ أمر الموت لمّا كرّرَه ولم يضمره(٣). وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة. ومن ذلك قوله تعالى ﴿أصحاب الميمنة ما اصحاب الميمنة واصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة﴾ (الواقعة–٨،٩)، وقوله تعالى ﴿الحاقة ما الحاقة﴾ (الحاقة–١)، وقوله ﴿القارعة ما القارعة﴾ (القارعة–١) فأعيد في جميعه الاسم مظهراً، وقد تقدم مظهراً وذلك للتعظيم والتفخيم فضلاً على معنى التعجب الذي فيه(٤).

السادس :– أنها جملة من مبتدأ وخبر، وهي خبر بعد خبر عن ضمير الشأن ((هو)). وهذا ما أميل اليه من هذه الاقوال، فهي جملة خبر ثان عن المبتدأ ((هو)). ومضمونها شأن مستقل، ولذلك لم تعطف بالواو (٥).

---

(١) ينظر : اعراب القرآن – للنحاس ٣٠٨/٥ * مشكل اعراب القران ص٨٥٢*. والبيان في غريب اعراب القرآن ٥٤٧/٢.

(٢) ينظر : اعراب النحاس الشاهد ٧٠.

(٣) ينظر : اعراب القرآن – للنحاس ٣٠٨/٥، ومشكل اعراب القران ص٨٥٢*.

(٤) ينظر : مشكل اعراب القران ص٨٥٢ – ٨٥٣.

(٥) ينظر : التحرير والتنوير ص٣٧٢.

وقوله تعالى ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ خبر ثالث عن ضمير الشأن وهي ايضاً لم تعطف بالواو لان مضمونها مقصود بالاهتمام بشأنه.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾. ((أحد)) اسم يكن و ((كُفُواً)) خبر، والجار والمجرور (له) ملغى وهذا قول اكثر النحويين[1].

وقيل : ان ((كُفُواً)) حال من ((أحد)) مقدما، لان نعت النكرة إذا تقدم عليها نصب على الحال، كما تقول : ((جاءني رجلٌ مسرع)) و ((جاءني مسرعاً رجلٌ)) و ((عندي غلامٌ ظريف)) و ((عندي ظريفاً غلام))[2].

وجوز بعضهم ان يكون الجار والمجرور ((له)) حالاً من ((أحد)) قدم عليه رعاية للفاصلة، ولئلا يلتبس بالصفة، أو الصلة[3].

والذي أرجحه القولُ الاول، وهو أنّ ((أحد)) اسم يكن، ((كُفُواً)) الخبر قدّم لمعنى مقصود، والجار والمجرور متعلق بالخبر، وذلك أنه إذا كان اسم ((كان)) او احدى اخواتها نكرة، وجاء بعده نعت رفع على الاتباع، وإذا قدم النعت على اسم كان ولم يكن شيء قبله يتبعه، ينصب خبراً لـ ((كان))، أو أحدى اخواتها، تقول : ((ما كان لخالدٍ أحدٌ شبيه)) فـ ((شبيه)) صفة لـ (أحد) فأذا قدم ولم يوجد شيء ينصب خبراً بـ ((كان))، فنقول: ((ما كان لخالدٍ شبيهاً أحدٌ)). قال الفرّاء : ((وإذا كان فعل النكرة بعدها أتبعها في (كان) واخواتها، فتقول : (لم يكن لعبدِ اللهِ نظيراً أحدٌ) وذلك أنّه إذا كان بعدها فقد أتبع الاسم في رفعهِ فأذا تقدم فلم يكن قبله شيء يتبعه رجع الى فعل (كان) فنصب))[4].

---

[1] ينظر : اعراب القرآن – للنحاس ٣١٢/٥، مشكل اعراب القرآن ٨٥٤/٢، البحر المحيط ٥٢٨/٨، جامع البيان ٢٠ /٤، وروح المعاني ٢٧٧/٣٠.

[2] ينظر : اعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص٢٣١، اعراب القرآن – للنحاس ٣١٢/٥، مشكل اعراب القرآن ٨٥٤/٢، البيان في غريب اعراب القرآن ٥٤٧/٢، وروح المعاني ٢٧٧/٣٠.

[3] ينظر : روح المعاني ٢٧٧/٣٠.

[4] معاني القرآن – للفراء ٢٩٩/٣-٣٠٠.

المحور الثالث

الدراسات الصوتية

يلاحظ الدارس للاصوات اللغوية أنّ ثمة علاقةً متينةً، ومناسبةً قويةً بين الصوت والمعنى. وما كان علماؤنا القدامى في غفلة من هذا. فقد عنوا بالبحث الصوتي لاجل الوقوف على اسرار اللغة العربية. وقد كانت البداية منصبّة على العناية بالصوت وحده من حيث المخرج والصفة ومحاولة حصر اللغة. أذ بنى الخليل بن احمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) معجمه على الجانب الصوتي وهو ترتيب الابواب على وفق مخارج الحروف. وهذا لا يعني أنّ الخليل لم ينتبه الى العلاقة بين الصوت ومعناه، فلعلّه أول مَن نبّه على المناسبة ووجود العلاقة الطبيعية بين الصوت ومدلوله(١) فيما عزاه اليه الازهري، قال الخليل : ((صرّ الجندبُ يصرُّ صريراً، وصرّ البابُ يَصرّ، وكلُّ صوت شِبْهَ ذلك فهو صريرٌ، إذا امتدّ، فاذا كان فيه تخفيف وترجيع في إعادةٍ ضُوعف، كقولك: ((صرصر الأخطبُ صرْصرةً))(٢). وعناية الخليل هذه بالاصوات دفعت بعض الباحثين الى القول: ((أما علماء اللغة العرب فقد بدأت محاولاتهم بعمل الخليل بن احمد، فلم اجد نحوياً من النحاة الاولين أحسّ بضرورة الدراسة الصوتية لفهم أسرار العربية غير الخليل بن احمد))(٣) والذين جاءوا بعده(٤) وكانت حصيلة هذه الدراسات قد آتت أكلها على يد العالم اللغوي ابن جني (ت٣٩٢هـ) الذي بحث القضايا الصوتية بصورة مفصلة، واتسمت دراساته بمنهج التخصيص، فقد أفرد كتابه في هذا الموضوع ((سر صناعة الاعراب)) وتناول في كتبه الاخرى قضايا صوتية كثيرة (٥). فعقد في كتابه الخصائص باباً سمّاه : ((باب في اساس الالفاظ اشباه المعاني))(٦) قال فيه : ((اعلم أنّ هذا موضع شريف

---

(١) ينظر : عبقري من البصرة – د. مهدي المخزومي ص٥٤.

(٢) تهذيب اللغة – للازهري ١٢/١٠٦.

(٣) مدرسة الكوفة ص١٦٨.

(٤) ينظر : الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ص٥١-٧٣.

(٥) ينظر : منهج البحث اللغوي بين القرآن وعلم اللغة ص٦٢-٦٣.

(٦) الخصائص ٢/١٥٢-١٦٨.

لطيف، وقد نبّه عليه الخليل وسيبويه، وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته))[1].

ولاحظ اختلاف صوت الحرف الواحد في اللفظتين، أو الحرفين أو الثلاثة يؤدي الى اختلاف دقيق في المعنى المراد من اللفظ وأنّ دقّة المعنى تتفق مع جرس الحرف المختار، فكأنّ هناك اختياراً مقصوداً للصوت ليؤدي المعنى المغاير لما يؤديه الصوت الاخر[2]. فقال : ((فأما مقابلة الالفاظ بما يشاكل اصواتها من الاحداث فباب عظيم واسع. ونهج متلئب عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها، فيعدلونها بها ويحتذونها عليها وذلك اكثر مما نقدره وأضعاف ما نستشعره. من ذلك قولهم : خضم وقضم، فالخضم لاكل الرطب، كالبطيخ والقثاء، وما كان نحوهما من المأكول والرطب. والقضم للصلب اليابس : نحو قضمت الدابة شعيرها، ونحو ذلك... فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس، حذوا لمسموع الاصوات على محسوس الاحداث. ومن ذلك قولهم : النضحُ للماء ونحوه، والنّضخ أقوى من النّضح، قال الله تعالى ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾[3] فجعلوا الحاء لرقتها للماء الضعيف، والخاء، لغلظها لما هو أقوى منها. ومن ذلك قولهم : الوسيلة والوصيلة، والصاد كما ترى أقوى صوتاً من السين، لما فيها من الاستعلاء، والوصيلة أقوى معنى من الوسيلة وذلك أن التوسل ليست له عصمة الوصل والصلة، بل الصلة أصلها من اتصال الشيء بالشيء، ومماسته له، وكونه في اكثر الاحوال بعضاً له كاتصال الاعضاء بالانسان، وهي ابعاضه، ونحو ذلك، والتوسل معنى يضعف ويصغر أن يكون المتوسل جزءاً او كالجزء من المتوسل اليه، وهذا واضح فجعلوا الصاد لقوتها، للمعنى الاقوى، والسين لضعفها، للاضعف...))[4] ثم تطورت الدراسات الصوتية بعد ذلك وبخاصة في العصر الحديث تطوراً كبيراً، نتيجة الوسائل والاجهزة العلمية الحديثة التي استخدمت في هذا المضمار.

---

[1] المصدر نفسه ٢/١٥٧.

[2] ينظر : الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ص٢٧٧.

[3] الرحمن آية ((٦٥)).

[4] الخصائص ٢/١٥٧ – ١٦١.

ونالت هذه الظاهرة، أعني -علاقة اللفظ وما يطرأ عليها من تغير صوتي بالمعنى- عناية كثير من علماء اللغة القدامى والمحدثين، لانها خصيصة من خصائص اللغة العربية⁽¹⁾.

وأقول : إنّ الدارس لسور القرآن الكريم قصارها وطوالها يجد أنّ لكلّ سورة شخصية مستقلةً ومميزةً من غيرها وضعت داخل اطار خاص بها، وقد اضفى عليها التعبير روحاً يعيش معها القلب، وتشتد اليها الاحاسيس. وإذا كان قسم من سور القرآن الكريم ذا موضوعات متعددة فأنها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمحور خاص، لا يحسُّ القارىء وهو ينتقل من موضوع الى آخر بأدنى خلل في التركيب والعرض. فلكل سورة جوّ خاص يظلّل موضوعاتها كلها، ولها ايقاع موسيقي خاص متأت من دقّة اختيار الاصوات والمقاطع الصوتية وإذا تغير ذلك في ثنايا السياق فأنّما يتغيّر لمناسبة موضوعية خاصة.

اقول : إنّ الدارس ليقف خاشعاً امام روعة هذا النظام العجيب في اختيار الحروف وترتيبها في القرآن الكريم. هذا الترتيب الذي جعل بعضها يساند بعضها الاخر ويهيء له..

ونحن نقرأ سورة الاخلاص.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

نجد أن هذه السورة التي تعادل ثلث القرآن تتكون من (٤٧) سبعة واربعين حرفاً، موزعة على النحو الآتي :

١- الهمزة = (٢) حرفان

٢- الحاء = (٢) حرفان

٣- الدال = (٥) خمسة احرف

٤- الصاد = حرف واحد

٥- الطاء = حرف واحد

٦- القاف = حرف واحد

٧- الكاف = (٢) حرفان

---

[1] ينظر : دراسات في فقه اللغة - د. صبحي الصالح ص١٤١-١٧٢، وخصائص العربية ومنهجها الاصيل في التجديد والتوليد - محمد المبارك ١٤-٤٣ وفقه اللغة - د. حاتم صالح الضامن ص٦١.

٨- اللام - (١٢) اثنا عشر حرفاً
٩- الميم - (٤) اربعة احرف
١٠- النون - حرف واحد
١١- الهاء - (٤) اربعة احرف
١٢- الواو - (٥) خمسة احرف
١٣- الالف - (٢) حرفان

وهذا الاحصاء – كما لا يخفى – مبني على وفق الرسم أما إذا نظرنا اليه من جهة النطق، لكون القرآن نزل منطوقاً فإنها تتكون من (٤٨) ثمانية واربعين حرفاً إذا وقفنا على قوله : ((أحد)) ومن (٤٩) تسعة واربعين حرفاً إذا وصلناها بالسورة التي بعدها. واليك كتابتها على وفق النطق :-

قل هُوَ لْلاَهُ أحدُنِ لْلاَهُ صَمَدْ، لم يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُـل لَهُو كُفُوَن احَدُنْ. وليس هناك فرق كبير بين النظامين الرسمي والنطقي لكن العجيب في هذه الحروف نظام ترتيبها الدقيق وتوزيعها اللذان أحدثا تلاؤماً صوتياً بديعاً، وانسجاماً موسيقياً رائعاً بين الفاظ السورة ومضمونها فالسورة كما ذكرنا جاءت لتبيّن عقيدة التوحيد، وتردُّ رداً قوياً على ما واجهته الدعوة من عنت الكافرين بسبب هذه العقيدة التي يدعو اليها الاسلام وتتصدى تصدياً كبيراً لجدل المشركين وتجاهل اهل الكتاب الذين كانوا يعرفون الحقيقة، ولكن يكرهون هذا الدين الذي سيقضي على دينهم فالسورة افتُتِحت بقوله تعالى : ((قُلْ)) أي : بالقاف واللام، اللذين ينتج عنهما مقطع طويل مغلق ((قـ ـُـ ل)) فيه قوة تناسب الحدث الذي من اجله نزلت السورة، فأمر سبحانه وتعالى نبيّه الكريم، أن يردُّ مهاترات المشركين وتخرصاتهم، وجدالهم العقيم، بقوة الايمان الراسخ، منبهاً اياهم بشدة بقوله ((قُلْ)) لينتبهوا الى ما بعد القول : فأبتدأت الكلمة بالقاف وهو حرف شديد مجهور [1]. يخرج بأن يتصل أقصى اللسان بأدنى الحلق بما في ذلك اللهاة، ثم ينفصل العضوان فجأة ليحدث الهواء

---

[1] ينظر : الموضح في التجويد ص١١٧، الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ص٣٠٥، اصوات اللغة ص٨٨، وعلم التجويد ص٦٦، وذهب بعض الباحثين المحدثين الى ان القاف العربية الفصيحة التي تنطقها اليوم صوت مهموس. ينظر : التطور النحوي ص١٦، والاصوات اللغوية – ابراهيم انيس ص٨٥، دروس في علم اصوات العربية ص١٠٧، وعلم اللغة – محمود السعران ص١٧٠.

المحبوس باتصال صوتاً انفجارياً شديداً[١]. وأما اللام فهو صوت مجهور منحرف[٢] وفي هذا الحرف ايضاً قوة متأتية من انحراف اللسان باللام واعتراضه في مجرى النفس باستناده الى اللثة، فتنشأ عقبة في وسط الفم، لكن الهواء يتسرب من جانبي اللسان[٣]، وكذلك من تغليظها لمجيء الضمة قبلها [٤] إن هذه الشدة قد احدثت جرساً عالياً يقتضيه المقام، ليهزّ النفوس التي تريد أن تسأل عن حقيقة ربّ محمد ﷺ ثم يأتي مقول القول الذي يبتدئ بضمير الشأن، (هو). فيعقب اللام الساكن صوتُ الهاء الذي يخرج من اقصى الحلق (الحنجرة) ويجري فيه النفَس[٥]، ثم يتصل به الواو، وهو حرف شفوي حنكي قصي[٦]. وكأن هذين الصوتين جاءا ليدلا على حقيقة تتعلق بالباري عزّ وجل، وهي أنه تعالى أجل من أن تحدّه حدود، فالسعة الموجودة في صوت الهاء الذي يخرج من الجوف ولا يلقى مروره اعتراضاً في الفم، وعدم شدة الهاء والواو كلّ ذلك يناسب ما قلناه من أنّ عظمة الله تعالى لا تحدها حدود، وأن رحمته وسعت الخلق كلّهم، وأن مغفرته تتسع لجميع العصاة من المؤمنين فهو الغفور الرحيم الذي وسعت رحمتهُ كلّ شيء. والواو وان كان ليس بالشديد ولا بالرخو لكن الذي زاده قوة في صوته تشكيله مع لام لفظ الجلالة المفخمة مقطعاً طويلاً مغلقاً | وـَ ل | ثم نستمع الى تفخيم اللام في اسم اللّـه تعالى تنبيها على فخامة المسمّى به وجلاله، فيعقب اللام المفخمة (ألف) وهو حرف هاوٍ يتردد بين الشدة والرخاوة، وهو أخفّ الحروف واوسعها مخرجاً[٧] ويخرج من اقصى الحلق، فلو تدبرنا نطق لفظ الجلالة في هذا السياق : ((قل هو اللّهُ)) لأحسسنا أنّ هذا اللفظ يخرجُ ملءَ الفم مع فك الحنكين، وما ذلك إلا للتدليل على عظمة الباري وعلوّ منزلته وسموّها، وقدرته الجبارة. وينتهي لفظ الجلالة بالهاء الذي يخرج من اقصى الحلق ايضاً، ويجري فيه النفس

---

(١) ينظر : علم اللغة ص١٧٠، واصوات اللغة ص٨٨، والدراسات اللهجية ص٣٠٥.

(٢) ينظر : علم اللغة ص١٨٦.

(٣) ينظر : علم اللغة ص١٨٥، والدراسات اللهجية ص٣١٧.

(٤) ينظر : الموضح في التجويد ص١١٩.

(٥) ينظر : دروس في علم الاصوات العربية ص٣٥.

(٦) ينظر : علم اللغة ص١٩٦.

(٧) ينظر : الاصوات الحلقية عند سيبويه والاخفش ص١١٣.

موحياً بالدوام المطلق للهِ تعالى في وجوده، فهو لا ابتداء له ولا انتهاء، أزلي أبدي، وموحياً بالكمال المطلق لله تعالى في صفاته، فهو تعالى موصوف بصفات الكمال أزلاً وأبداً. فضلاً على كون الهاء محطة راحة للناطق بين تفخيم اللام المتبع بصوت الالف. وبين صوت الهمزة الشديد الذي يأتي بعدها في كلمة ((أحد)). وهذه اللفظة -أعني (أحد)- في طرفيها صوت ناصع وجرس ضخم، وهي في هذا السياق تحافظ على تناسق الاصوات فقد ابتدأت الهمزة وهي صوت شديد، يخرج من اقصى الحلق (الحنجرة)(١). وهي اثقل الحروف وادخلها في الحلق(٢). والشدة في هذا الحرف ناجماً من كونها صوتاً انفجارياً يحدث بعد انطباق الوترين الصوتيين في الحنجرة انطباقاً كاملاً وشديداً بحيث لا يسمح للهواء بالمرور مطلقاً، فيحتبس داخل الحنجرة، ثم يسمح له بالخروج فينطلق فجأة وبسرعة على صورة انفجار(٣). ثم يأتي بعد الهمزة – ليتوسط بينها وبين الدال الشديدة – حرف يخرج من وسط الحلق، وهو الحاء(٤)، وهو حرف رخو يجري فيه الصوت(٥)، بيد ان الحاء، وأنّ كان فيها ذلك القدر من البّحة والصحّل، فانها كيف تصرفت الحال بها اقوى من غيرها من الحروف الرخوة، كالهاء، والالف(٦)، وتنتهي هذه اللفظة بصوت شديد مجهور، وهو الدال الذي يخرج من طرف اللسان واصول الثنايا (اللثة)(٧) إنّ الانتقال في هذه اللفظة من الشدّة الى الرخاوة ثم العودة الى الشدّة والقوة، إنما هي تجسيد وتصوير دقيق لمعنى الأحدية التي تفرّد بها الباري ﷿. وهكذا تجري بقية اصوات السورة،

---

(١) ينظر : الكتاب ٤/٤٣٤، سر صناعة الاعراب ١/٦٩، ٧٨، الرعاية لتجويد القراءة ص١١٩، وشرح المفصل ٩/١٠٧.

(٢) ينظر : الموضح في التجويد ص١٢٣.

(٣) ينظر : الاصوات اللغوية ص٩١، علم اللغة العام – الاصوات – د. كمال بشر ص١١٢، علم اللغة – د. محمود السعران ص١٧٠ – ١٧١، القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ص٣٤، واللهجات في القراءات القرآنية ص٩٥.

(٤) ينظر : علم اللغة – السعران ١٩٤.

(٥) ينظر : دروس في علم اصوات العربية ص٣٥.

(٦) ينظر : التنبيه على شرح مشكلات الحماسة ص٣٢٠.

(٧) ينظر :دروس في علم الاصوات العربية ص١١٩، وعلم التجويد دراسة صوتية ميسرة د. غانم قدوري ص٤٨.

فتتوزع بين الشدة والرخاوة وبين التوسط بينهما. ولكن ما يلفت النظر في هذه السورة المباركة هو توزيع حرف الدال الذي جعل رويا لفواصل هذه السورة المتماثلة. ومن الجدير بالذكر ان الفاصلة تتعلق موسيقياً بجو السورة(١) وأرجح هنا الوقوف على الدال، لاكثر من سبب :-

الاول :- إنّ الوقوف على رؤوس الآي وهو عمل بالسنة النبوية (٢) ففي حديث أمّ المؤمنين أمّ سلمة رضي الله عنها، لما سُئلت عن قراءة رسول الله ﷺ، قالت: ((إنّ النبيَّ ﷺ كان يقطع قراءته، آية، آية : الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، ثم يقف الرحمن الرحيم، ثم يقف...))(٣).

الثاني : أن الوقف على الدال تتطلبه القراءة القرآنية لأنّه يحقق الانسجام الموسيقي، فضلاً على استراحة القارئ وتدبره لما يقرأ وفهمه له.

الثالث :- إنّ دلالة الوقف بشكل عام تشبه الى حدٍّ بعيد دلالة النبر حيث تبرز كتلة المقطع الكلامي الموقوف عليه(٤). ولو قطعنا هذه السورة على وفق المقاطع الصوتية، والوقوف على الدال لوجدنا أنّ المقاطع الصوتية الطويلة المغلقة لا تساوي المقاطع القصيرة من حيث العدد. واليك كتابة السورة مقطعياً...

| ق ـُ ل | هـ ـُ | و ـَ ل | ل ـَ | هـ ـُ | ء ـَ | ح ـَ د |

| ء ـَ ل | ل ـَ | هـ ـُ ص | ص ـَ | م ـَ د |

| ل ـَ م | ي ـَ | ل ـِ د | و ـَ | ل ـَ م | ي ـُـُ | ل ـَ د |

| و ـَ | ل ـَ م | ي ـَ | ك ـُ ل ن | ل ـَ | هـ ـُـُ | ك ـُ | ف ـُ |

---

(١) ينظر : الفاصلة في القرآن الكريم ص٢٩٤.

(٢) عدّ بعض العلماء الوقف على رؤوس الآي سنة، وقال ابو عمرو : ((وهو أحبّ اليّ)) واختاره ايضاً البيهقي ((في شعب الايمان)) وغيره من العلماء، وقالوا : الافضل الوقوف على رؤوس الايات، وإنْ تعلقت بما بعدها. قالوا : واتباع هدي رسول الله ﷺ وسنته اولى. ينظر : جامع الاصول في احاديث الرسول ٢/ ٤٦٣، والفاصلة في القرآن ص١٣٢.

(٣) رواه الحاكم وغيره، وقال : صحيح على شرط الشيخين، ينظر : المستدرك ٢/٢٣٢. وينظر : سنن الترمذي بشرح الاحوذي ٢/٢٤١، والنسائي ٢/١٨١، ومسند الامام احمد ٦/٣٠٢.

(٤) ينظر : الفاصلة في القرآن الكريم ص١٧٩،١٩٤.

| و ـَ ن|د ـَ |ح ـَ د|.

يلاحظ أن عدد المقاطع الطويلة المغلقة = (١٤) أربعة عشر مقطعاً، وعدد المقاطع القصيرة = (١٢) اثنا عشر مقطعاً. بينما كان عدد المقاطع الطويلة المفتوحة (٤) اربعة مقاطع في حين في القراءة الاخرى، أي : قراءة التحريك وعدم الوقوف على رؤوس الآي، نجد أن عدد المقاطع الطويلة المغلقة يقل ويصبح (١٢) اثني عشر مقطعاً بينما يزداد عدد المقاطع القصيرة فيصل الى (١٧) سبعة عشر مقطعاً. أما المقاطع الطويلة المفتوحة فلم تتغير واليك الكتابة الصوتية لقراءة التحريك..

ق ـُ ل	هـ ـُ	و ـَ ل	ل ـَ	هـ ـُ	ء ـَ	ح ـَ	د ـُ
ن ـــ ل	ل ـَ	هـ ـُ ص	ص ـَ	م ـَ	د ـُ
ل ـَ م	ي ـَ	ل ـــ د	و ـَ	ل ـَ م	يـ ـٌ	ل ـَ د
و ـَ	ل ـَ م	ي ـَ	ك ـُ ن	ل ـَ	هـ ـٌ
ك ـُ	ف ـُ	و ـُ ن	د ـَ	ح ـَ	د ـُ ن

وهذا على نية وصلها بالسورة التي تأتي بعدها. واريد أن أخلص من هذه الدراسة الصوتية الى أنّ القارئ المتفحص، والممعن النظر يجد في هذه السورة – كما في القرآن الكريم كلّه – أن مجيء الاصوات على هذا النحو ينسجم انسجاماً مطلقاً مع العقائد والاحكام التي يريد ان يعرض لها. وهنا – في سورة الاخلاص نجد أنّ مجيء الاصوات بهذا النظام الدقيق، وتوزيعها على المفردات وتظمها في هذا النسق الخاص العجيب الذي تولّد منه ايقاع موسيقي بديع، اشترك فيه جرس الكلمات، ونغم العبارات، وموسيقى السياق، انما جاء متناسياً مع ما يتصف به الباري عزّ وجل من القوة والعزة والرحمة والمغفرة، والاحدية والصمدية والله اعلم.. ولذلك لو غير حرف مكان حرف آخر في هذه السورة، كما هو الحال في القرآن الكريم كلّه، أو استبدل لفظ بلفظ آخر، مرادف له، أو مساويه في المعنى، لشعر القارئ والسامع معاً بخلل في النظم، وانكسار في التركيب وفكٍّ في الترابط.. وقد اصاب المفسّر الاندلسي ابن عطية رحمه الله إذ قال : إن الله احاط بالكلام كلّه، فإذا أراد ترتيب اللفظة من القرآن، علم بأحاطته أيّ لفظةٍ تصلحُ أن تلي

الاولى ، ويتبين المعنى بعد المعنى ثم كذلك، من أول القرآن الى آخره، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ومعلوم ضرورة أن لا احد من البشر يحيط بذلك، فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة....

ولهذا ترى البليغ ينقح القصيدة أو الخطبة حولاً، ثم ينظر فيها فيغير وهلم جرا، وكتاب الله لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب على لفظة احسن منها، لم يوجد، ونحن يتبين لنا البراعة في اكثره، ويخفى علينا وجهه في مواضع))[1]. وما أصدق قول بنت الشاطئ : ((ما من لفظ او حرف منه يمكن أن يقوم مقامه غيره، بل ما من حركة أو نبرة لا تأخذ مكانها في ذلك البيان المعجز))[2].

المحور الرابع

الدراسة الفنية

مرت بنا الدراستان النحوية والصوتية لهذه السورة المباركة، ونعرض الان الدراسة الفنية لها فنقول :-

لا جرم أن العلوم العربية هي الطريق الى فهم القرآن الكريم واستكناه أسراره، ولاشك في أن لعلوم البلاغة اليد الطولى في ذلك. فبها يعرف الاسلوب وقيمة الكلام، وهي الصراط الذي يفضي الى رحاب القرآن الكريم، وفهم ما فيه من فصاحة وبيان. ولا ريب في أن الدراسة الفنية تقوم اولاً وقبل كل شيء على اظهار مواضع الدقة في التعبير القرآني[3] وهي سبيل الوصول الى التذوق السليم لاسرار البيان القرآني، والتدبر الواعي لنظمه الباهر وبيان عناصر الجمال الفني فيه. ولعلنا في دراستنا الفنية لسورة الاخلاص نلمس شيئاً من ذلك، وهو ما نطمع اليه.

---

[1] نقلاً عن كتابي فكرة اعجاز القرآن ص ٩٤–٩٥، والبيان في اعجاز القرآن د. صلاح عبد الفتاح الخالدي ص١٤٧.

[2] الاعجاز القرآني ص٢١٥.

[3] ينظر : التفسير والمفسرون ٣/٢١٣.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

– افتتاح السورة بالفعل (قل)

ابتدأت السورة بقوله تعالى ((قل)) أي : انها ابتدأت بالفعل والجملة الفعلية ليست قوتها كقوة الجملة الاسمية، لأن الجملة الاسمية آكد من الجملة الفعلية واقوى، فالأسم أقوى واثبت من الفعل لأن الأسم يدل على الثبوت والفعل يدلّ على الحدوث والتجدد⁽¹⁾. ولكن هذا الابتداء بالفعل هو ما يقتضيه المقام. وذلك لاكثر من مغزى..

الاول :– أن الاجابة عن سؤالهم بـ (قل) هو لبيان أن هذا القرآن هو من عند الحكيم الخبير، وليس من محمد ﷺ ولم يكن هذا النظم في مقدوره، فهو لا ينطلق عن هواه، بل يتبع ما يوحى اليه، ولذلك أمر بالقول في ابتداء الكلام ليكون السامع والقارئ على علم من أن محمداً ﷺ لا دخل له في الوحي، فلا يصوغه بلفظه، ولا يلقيه بكلامه، وانما يُلقى إليه الخطابُ القاءً، فهو مخاطَبٌ لا متكلِمٌ، حاكٍ ما يسمعه، لا معبرٌ عن شيءٍ يجول بنفسه ⁽²⁾.

الثاني :– إن المقام مقام توحيد وتبليغ وانذار، يبلغ به، ويقول به، ويؤمر بأن يدعو اليه، فصيغة الفعل هي المناسبة ؛ ولأن الامر بالقول في ابتداء الكلام يستدعي الاهتمام بمقول القول الذي قصد اعلانه للناس لأن النبي ﷺ كان يعلم كلَّ العلم حقيقة ما تضمنته السورة مما يخص الايمان بالله تعالى ووحدانية ذاته وصفاته جلّ وعلا، فالخطاب وإن كان موجهاً اليه ﷺ لكنَّ المخاطبين بذلك الناس كافة. ومما يدل على ان المقام هنا يستدعي ابتداء الكلام بالفعل لاهمية المقول، الاتيان بعده بضمير الشأن الذي يدلّ هو ايضاً على الاهتمام البالغ بالامر الذي يأتي بعده.

---

(١) ينظر : معاني الابنية – د. فاضل صالح السامرائي ص٩.

(٢) ينظر : مباحث في علوم القران – د. صبحي الصالح ص٣٠.

قوله : ﴿هو الله أحد﴾

إنّ من بلاغة التعبير في هذه السورة مجيء المفردات في مكانها المناسب بدقة متناهية – كما هو الحال في سور القرآن الكريم كلها – والاختيار الدقيق للمفردات. والأمر العجاب فيها هو ترتيبها في الآيات الكريمة وتناسقها وترابطها بصورة تدهش العقول وتأسر القلوب...

ولو نظرنا في هذا الجزء من الآية لرأينا أنها بدأت بضمير الشأن ((هو)) وضمير الشأن – كما ذكرنا – عندما يذكر يراد منه الاهتمام بما بعده لأن السامع إذا سمعه ولم يكن قد سبق له معاد انتظر ما يرد بعده ليفسره، فجاء ما بعده مخبراً ومقرراً : أن الشأن والخبر العظيم هو أن الله أحد. واللافت للنظر أن التعبير القرآني هنا عدل عن لفظة ((ربي)) الى لفظ الجلالة ((الله)) في حين ان السؤال كان : ((صف لنا ربك)) فقال: ((قل هو الله أحد)) ولم يقل : ((ربي)). وسبب ذلك – والله اعلم – أنّه أراد ان يذكرهم ويعلمهم بأن الله ليس ربّه وحده، وانّما هو ربّه وربّهم وربّ الخلق كلهم، فلو قال : ((ربي)) لانصرف الذهن الى أنّه خصصه له وحده، ولأوهم أن يكون هناك اكثر من ((رب)) لا سيما أن اذهان غير الموحدين كانت متهيئة لقبول مثل هذا الوهم، وايضاً فإنّ في لفظة ((الله)) عموماً فضلاً على العظمة الموجودة فيها.

وأما ((ربي)) فهو اخص من لفظ الجلالة ((الله)). ولننظر الى دقيقة اخرى في الاستعمال القرآني هنا، وهو استعماله لفظ ((أحد)) فقال : ((قل هو الله أحد)) ولم يقل واحد، أو أي لفظ اخر يرادفه. ولو دققنا في معنى هاتين اللفظتين لوجدنا ان المقام هنا والسياق يقتضيان استعمال (أحد) بدلاً من (واحد)، ولو استعمل ((واحد)) لاختلّ المعنى فالواحد والأحد ليسا اسمين مترادفين قال الأزهري :–

((وأما اسم الله عَزَّ وَجَلَّ (أحد) فإنّه لا يوصف شيء بالأحدية غيره، لا يقال : (رجل أحد) و (لا درهمٌ أحد)، كما يقال : (رجل واحد)، لأنّ أحد صفة من صفات الله عَزَّ وَجَلَّ التي استخلصها لنفسه فلا يشركه فيها شيء))[1].

---

(١) ينظر : لسان العرب : مادة ((وحد)).

ولا يطلق لفظ ((أحد)) في الايجاب إلاّ على الباري سبحانه وتعالى جاء في تفسير ابن كثير في تفسيره قوله تعالى ﴿قل هو الله احد﴾. ((يعني هو الواحد الاحد الذي لا نظير لَهُ، ولا يطلق هذا اللفظ على أحدٍ في الاثبات إلاّ على الله ﷻ، لأنّه الكامل في جميع صفاته واعماله)) (١).

وذكر ثعلب فرقاً بين (أحد) و (واحد)، وهو أنّ (أحد) لا يبنى عليه العدد ابتداء فلا يقال : احد، واثنان، كما يقال واحد، واثنان، ولا يقال : (رجل احد) كما يقال : رجل واحد ولذلك اختص به اللّه سبحانه وتعالى (٢).

وينقل لنا الرازي الوجوه التي ذكرت في الفرق بين (واحد) و (أحد) فيقول : ((ذكروا في الفرق بين الواحد والأحد وجوهاً :-

احدها : أنّ الواحد يدخل في الأحد، والأحد لا يدخل فيه.

وثانيها: أنّكَ إذا قلت : (فلان لا يقاومه واحد) جاز أن يقال : (لكنّه يقاومه اثنان) بخلاف الأحد، فإنك لو قلت : (فلان لا يقاومه أحد) لا يجوز أن يقال : (لكنّه يقاومه اثنان).

ثالثاً: أنّ الواحد يستعمل في الاثبات والأحد في النفي. تقول في الاثبات : (رأيتُ رجلاً واحداً) وتقول في النفي (ما رأيتُ أحداً) فيفيد العموم(٣).

ويرى كثير من النحاة أنّ همزة (أحد) الموضوع في النفي العام أصلية غير منقلبة عن واو، وقال آخرون : إنها منقلبة عن واو، فالاصل (وَحَدَ) فأُبدل من الواو همزة وهو قليل في الواو المفتوحة(٤). ويرى آخرون أن همزة (أحد) في كلّ مكان بدل من الواو(٥).

---

(١) ينظر : تفسير ابن كثير ٤/٥٧٠.

(٢) ينظر : روح المعاني ٣٠/٢٧٢..

(٣) ينظر : تفسير الرازي ٣٢/١٧٨-١٧٩.

(٤) ينظر :اعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص٢٢٨ -٢٢٩، مشكل اعراب القرآن ٢/٨٥٣، جامع الاحكام ٢٠/٢٤٤، البيان - للعكبري ٢/٥٤٧، تفسير الرازي ٣٢/١٧٨، روح المعاني ٢٢/٤.

(٥) ينظر : شرح الرضي ٢/١٦٤، وروح المعاني ٢٢/٤.

وقال آخرون : إنّ (احداً) يراد بها معنى (واحد)، وأجمعوا على أنّ همزتها منقلبة عن واو، وأصلها وَحَدَ(١).

وأرى أن هناك فرقاً في المعنى بين (أحد) و (واحد)، وأنّ لكلّ واحد منهما خصوصية معينة في الاستعمال. جاء في التطور النحوي : ((والفرق في المعنى بين (أحد) و (واحد) معروف، وهو مثال ما قلناه من أنّ العربية تميل الى التخصيص، فَاستفادت من وجود شكلين للكلمة فلم تستعملها مترادفين، بل فرقت بينهما، وخصصت كلّ واحد منهما بمعنى ووظيفة غير ما لصاحبه))(٢). فالواحد غير الأحد، فالأول اسم وضع لمفتتح العدد، وهو ما يقابل الاثنين، تقول : جاءني منهم واحد، فالواحد له مماثل بخلاف الأحد، ولذلك قيل: ((والواحد يدخل في الأحد، والأحد لا يدخل فيه، فاذا قلت: لا يقاومه واحد، جاز أن يقال: لكنّه يقاومه اثنان، بخلاف قولك : لا يقاومه أحد))(٣). ثم إن (أحداً) تستعمل وصفاً في الاثبات وتختص بالخالق وحده، لا يشركه فيها غيره، وهي تدل على التفرّد، والتخصص بالأحدية وأن ليس له شريك، ولا مماثل، بخلاف الواحد الذي له مماثل من جنسه. ولذلك لّما أراد الله سبحانه وتعالى أن يبطل مزاعم الكفار، الذين سألوا النبيّ عن ربه، قال : ((أحد)) ولم يقل ((واحد))، ليعلمهم أن الله سبحانه وتعالى لا شريك له، ولا مماثل له، وهو ليس بجسم كآلهة المشركين، ولا من جنس المخلوقات، بل هو ((أحد))، أحدٌ في ذاته، وأحدٌ في صفاته، وليس فيه كمّ، أي ليس مركباً من أجزاء لا متصل ولا منفصل فالكم المتصل هو الذي يتركب من الاجزاء كالاجسام، والكم المنفصل هو الذي يكون له مماثل(٤)، أي: يكون له شريك مماثل في الألوهية، فقوله ((أحد)) أراد به أن يعلمهم بأنه تعالى منتفٍ عنه الكمان المتصل والمنفصل، أي ليس هو مركباً من أجزاء، ولا له مماثل في الالوهية، ولو قال : ((واحد)) لم يتحقق المعنى المطلوب من السورة لأن الواحد ينفي عن موصوفه الكم المنفصل فقط فلو قلنا ((هذا واحد دهره)) فالمراد نفي

---

(١) ينظر : تفسير الرازي ١٧٨/٣٢، شرح ابن يعيش ١٦/٦، ٣١/٦، شرح الرضي ١٦٤/٢، معاني النحو ٢٦٧/٣.

(٢) ينظر :التطور النحوي ص٧٩.

(٣) ينظر : فتح القدير ٥٠٢/٥.

(٤) ينظر : اصول الدين ص ١٣٤.

شريك عنه في علمه وفضله، بخلاف (الأحد) الذي ينفي عنه الكمين – كما ذكرنا – المتصل والمنفصل.

فالمعنى إذن : أن اللّه احد في الالوهية لا يشاركه فيها غيره، وهو ابطال للشرك الذي عند العرب، وللتثليث الذي عند النصارى والثنوية عند المجوس، والتعدد الذي لا يحصى عند البراهمة [١]. وأرى من الاهمية بمكان أن نستأنس بذكر آراء بعض أهل الصفوة في قوله تعالى ﴿قل هو الله احد﴾ أذ ذكروا أن ((هو الله أحد)) ثلاثة ألفاظ. وكل لفظ إشارة الى مقام من مقامات الطالبين الحق والسائرين الى الله سبحانه وتعالى.

فالمقام الاول : مقام اهل العرفان والمقربين، وهؤلاء لا يرون في الكون ألاّ وجود اللّه عزّ وجل، إذ يعلمون ما سوى الله ممكن لذاته، والممكن لذاته، ما استوى طرف وجوده وعدمه، فهو مسبوق بالعدم قبل وجوده، فإذن لا يستحق لقب الوجود إلاّ مَن كان وجوده من ذاته، لا من غيره، لذلك لا يرون إلاّ وجود الحق سبحانه وتعالى، فاذا قيل : ((هو))، فالاشارة اليه، ولا يقال إن ((هو)) اشارة مطلقة – والمطلق لا يحتاج الى مميز يميز المشار اليه – لأن هؤلاء ليس عندهم وجودان بل وجود واحد، وهو وجود الواجب، لا وجود الممكن، فأذا قيل ((هو)) فهذه الاشارة وحدها تتعين للحق ولا تحتاج الى شيء آخر. والمرتبة الثانية، مرتبة اصحاب اليمين، وهي ادنى من المرتبة الاولى، فهؤلاء رأوا في الكون وجودين وجود الخالق، ووجود المخلوق، فلم يكن ((هو)) كافياً في الاشارة الى الحق بل لا بدّ من مميز يميز اللّه سبحانه وتعالى عن الخلق، فقيل ((هو اللّه)).

أما المرتبة الثالثة. فهي ادنى المقامات، وهي مرتبة الذين يجوّزون وجوداً أكثر من إله، فلذلك قرن لفظ أحد، بعد ((هو اللّه)) فقيل ((هو الله أحد)). جاء في تفسير الرازي : ((إعلم أنّ قوله ((هو الله أحد)) ألفاظ ثلاثة. وكلّ واحد منها اشارة الى مقام من مقامات الطالبين :

فالمقام الاول : مقام المقربين، وهو اعلى مقامات السائرين الى الله، وهؤلاء هم الذين نظروا الى ماهيات الاشياء وحقائقها من حيث هي هي، فلا جرم ما رأوا موجوداً سوى الله. لأن الحقّ هو الذي لذاته يجب وجوده، وأما ما عداه فممكن لذاته، والممكن لذاته إذا نظر اليه من حيث هو هو كان معدوماً، فهؤلاء لم يروا موجوداً سوى الحق

---

[١] ينظر : التحرير والتنوير ص٢٧١.

سبحانه، وقوله ((هو)) اشارة مطلقة، والاشارة وإن كانت مطلقة إلاّ أن المشار اليه لما كان معيناً انصرف ذلك المطلق الى ذلك المعين فلا جرم كان قولنا ((هو)) إشارة من هؤلاء المقربين الى الحق سبحانه فلم يفتقروا في تلك الاشارة الى مميز ؛ لأنّ الافتقار الى المميز إنما يحصل حين حصل هناك موجودان وقد بيّنا أنّ هؤلاء ما شاهدوا بعيون عقولهم إلاّ الواحد فقط فلهذا السبب كانت لفظة ((هو)) كافية في حصول العرفان التام لهؤلاء.

المقام الثاني : وهو مقام اصحاب اليمين، وهو دون المقام الاول. وذلك لأن هؤلاء شاهدوا الحقّ موجوداً، وشاهدوا الخلق ايضاً موجوداً، فحصلت كثرة في الموجودات، فلا جرم لم يكن ((هو)) كافياً في الاشارة الى الحق، بل لا بدّ هناك من مميز به يتميز الحق عن الخلق ؛ فهؤلاء احتاجوا الى ان يقرنوا لفظة ((الله)) بلفظة (هو) فقيل لأجلهم : ((هو الله)) لأن الله هو الموجود الذي يفتقر اليه ما عداه، ويستغني هو عن كلّ ما عداه.

المقام الثالث : هو مقام اصحاب الشمال، وهو أخسُّ المقامات وأدونها وهم الذين يجوزون أن يكون واجب الوجود اكثر من واحد، وأن يكون الإله اكثر من واحد، فقرن لفظ (الأحد) بما تقدم رداً على هؤلاء، وابطالاً لمقالاتهم، فقيل ﴿قل هو الله احد﴾[١].

- ﴿الصمد﴾

لننظر ملياً في هذه المفردة، وكيف استعملها البيان القرآني استعمالاً في غاية الدقة.

قوله تعالى : ((اللّهُ الصّمَد))، والصمد على وزن (فَعَل). هو اسم مشتق بمعنى مفعول، كقَبَض بمعنى مقبوض، ونَفَض بمعنى منفوض - وهو عند قسم من اهل اللغة من (صَمَدَ) بمعنى قَصَدَ، يقال : صمده يصمدُهُ صمداً إذا قصده[٢]. وهذا الفعل يتعدى بنفسه، ويتعدى باللام وبـ الى[٣] والصمد عند العرب، السيد الذي يصمد اليه في الحوائج، قال الشاعرُ :

عَلَوتُه بحسـام ثمّ قلتُ لـه :   خـذها حذيفُ فأنت السّيّدُ الصمَدُ

---

[١] ينظر : تفسير الرازي ٣٢/١٧٩-١٨٠.

[٢] ينظر : مادة ((صَمَدَ)) في الصحاح، ولسان العرب.

[٣] ينظر : حاشية الشهاب على البيضاوي ٨/٤١٢.

وقال الآخر :

ألا بَلّغ الناعي بخيري بني أسد بعمرو بن مسعود وبالسّيد الصمَد [1].

اذن العرب استعملت هذا اللفظ واطلقته على اعظم واشرف سادة القوم الذين يُرْجَع اليهم في المهمات، ويُقْصدون في النوازل والحوائج ؛ لأنهم جمعوا خصال الكمال المستوجبة للسؤدد[2]. وقد ذكر اهل اللغة والتفسير معاني اخرى عدة للصمد، سنذكر مـ وقفنا عليه لنتلمس الاعجاز في دقة استعمال لفظ دون غيره في القرآن الكريم فقد قيل : إنّ الصمد الذي لا جوف له [3].

وقيل : الصمد : هو الباقي الذي لا يفنى[4].

وقيل : هو الذي لا يأكل ولا يشرب[5].

وقيل : معناه الدائم الباقي الذي لم يزل ولا يزال[6].

وقيل : هو الذي لم يلد ولم يولد، لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت وليس شيء يموت إلاّ سيورث، والله ﷻ لا يموت ولا يورث [7].

وقيل معناه : الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا معقّب لحكمه، ولا رادّ لقضائه[8].

وقيل : الصمد : الحيّ القيوم [9].

---

[1] ينظر : لسان العرب : مادة ((صمد))، والبحر المحيط ٥٢٧/٨، ومجاز القرآن ٢١٦/٢.

[2] ينظر : التحرير والتنوير ص٣٧٢.

[3] ينظر : جامع البيان ٢٢٣/٣٠، جامع الاحكام ٢٤٥/٢٠، البحر المحيط ٥٢٨/٨، تفسير ابن كثير ٤١٢/٧، كتاب التفسير – لابن تيمية ٢١٤/١٧، تفسير الرازي ١٨١/٣٢، حاشية الشهاب ٤١٢/٨.

[4] ينظر : جامع البيان ٢٢٣/٣٠، جامع الاحكام ٢٤٥/٢٠، تفسير ابن كثير ٤١٢/٧، كتاب التفسير ٢١٥/٧، تفسير الرازي ١٨٢/٣٢.

[5] ينظر : المصادر نفسها.

[6] ينظر :المصادر نفسها.

[7] ينظر : جامع البيان ٢٢٣/٣٠، تفسير الرازي ٢٢٣/٣٢، الدر المنثور ٦٦٩/٨.

[8] ينظر : جامع الاحكام ٢٤٥/٢٠، تفسير الرازي ١٨١/٣٢.

[9] ينظر : تفسير ابن كثير ٤١٢/٧.

وقيل : هو الكامل الذي لا عيب فيه (١).

وقيل : المستغني عن كل أحد والمحتاج اليه كل أحد (٢).

وعن ابن عباس قوله الصمد هو ((السيد الذي كَمُلَ في سؤدده، والشريف الذي قد كَمُلَ في شرفه، والعظيم الذي قد كَمُلَ في عظمته، والحليم الذي قد كَمُلَ في حلمه، والغني الذي قد كَمُلَ في غناه، والجبار الذي قد كَمُلَ في جبروته، والعالم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في انواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه هذه صفته لا تبغي إلاّ له)) (٣).

وقيل : الصمد : هو الذي لا يكافئه أحد (٤).

وقيل : الصمد : هو الذي لا تعتريه الآفات، ولا يوصف بصفته أحد (٥).

وقيل : هو المتعالي عن الكون والفساد (٦).

وقيل : هو الفرد الماجد الذي لا يقضي في أمر دونه (٧).

وقيل : هو الذي لم يتبيّن عليه أثر فيما ينظر (٨) يراد قوله تعالى ﴿وما مسنا من لغوب﴾.

وقيل : هو الاول بل عدد، والباقي بلا أمد، والقائم بلا عمد (٩).

وقيل : هو الذي لا تدركه الابصار، ولا تبلغه الاقطار، وكلّ شيء عنده بمقدار (١٠).

وقيل : هو الذي لا ينام ولا يسهو (١١).

---

(١) ينظر : جامع الاحكام ٢٤٥/٢٠، تفسير الرازي ١٨٢/٣٢.

(٢) ينظر : جامع الاحكام ٢٤٥/٢٠، كتاب التفسير ٢١٥/٧، تفسير الرازي ١٨٢/٣٢.

(٣) ينظر : جامع البيان ٢٢٣/٣٠، تفسير ابن كثير ٦٨٢/٧.

(٤) ينظر : جامع الاحكام ٢٤٥/٢٠، كتاب التفسير ٢١٥/٧، تفسير الرازي ١٨٢/٣٢.

(٥) ينظر : كتاب التفسير ٢١٥/٧، تفسير الرازي ١٨٢/٣٢.

(٦) ينظر : كتاب التفسير ٢١٨/١٧.

(٧) ينظر : تفسير الرازي ١٨١/٣٢.

(٨) ينظر : كتاب التفسير ٢١٨/١٧، تفسير الرازي ١٨٢/٣٢.

(٩) ينظر : المصدران أنفسهما.

(١٠) ينظر : تفسير الرازي ١٨٢/٣٢، وكتاب التفسير ٢١٨/١٧.

(١١) ينظر : تفسير الرازي ١٨٢/٣٢.

وقيل : هو الذي لا تدركه حقيقة نعوته وصفاته، فلا يتسع اللسان له، ولا يشير اليه البنان(١).

وقيل : الصمد : نور يتلألأ (٢).

وقيل : هو بمعنى نفي التجزي والتأليف عن ذاته، وهو قول اكثر اهل الكلام (٣).

هذه اشهر الاقوال التي قيلت في معنى الصمد .

وأقول : إذا كان السياق هو الذي يحدّد معنى المفردة اللغوية فإنّ هذه المعاني المذكورة كلها مرادة هنا في هذه السورة، لقد بيّن سبحانه وتعالى اولاً الوهيته المستتبعة لنعوت الكمال جميعها، فأحديته الموجبة لتنزهه جلّ وعلا عن شائبة التركيب والتعدّد بوجه من الوجوه، ونفي المشاركة لذاته العليّة ؛ ثم ذكر صمديته المقتضية لهذه المعاني المذكورة آنفاً جميعها.

وقد يقول قائل : إن العرب استعملت هذه اللفظة، وسمّت اسيادها وأشرافها بـ (الصمد). نقول نعم، ولكن بمعنى محدود، وهو الذي يرجع اليهم في الحوائج او بما اتصفوا به من رجاحة عقل، ونخوة، وكرم، وسؤدد، ولكن ليس بهذا المعنى الواسع الدقيق الذي اتسع له التعبير القرآني في سياق هذه السورة فقد استعمل هذا الوصف هنا من بين سائر الاوصاف استعمالاً مقصوداً وفي منتهى الدقة بحيث لا يسد مسده وصف آخر. والله أعلم.

ولا اريد أن أترك الحديث هنا من دون الاشارة الى مسألة مهمة، وهي مجيء لفظ (أحد) منكراً ولفظ (الصمد) معرفاً، وسبب ذلك – والله اعلم – أن العرب، لا بل اكثر الخلق يعلمون صمديته سبحانه وتعالى، ويعرفون بأنه هو الذي يرجع اليه إذا نزلت بهم النوازل، واليه الامر كلّهُ، قال تعالى ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ الله﴾ (الزخرف – ٨٧) وقوله ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والارض ليقولنّ الله﴾ (لقمان – ١٢٥) ولكن على الرغم من معرفتهم ذلك كانوا يفزعون الى آلهتهم في الشدّة، فنبههم على خطئهم، فقال (الله الصمد) فالألف واللام تفيد القصر، فالمستحق لأن يصمد اليه هو الله وحده لا

---

(١) ينظر : كتاب التفسير ٢١٨/١٧.

(٢) ينظر : تفسير ابن كثير ٤١٢/٧.

(٣) ينظر : كتاب التفسير ٢١٨/١٧.

غيره[١]. وهذا بخلاف (أحديته) التي كانوا يجهلونها ولما كان الامر كذلك جاء لفظ (الصمد) معرفاً، ولفظ (أحد) منكراً [٢].

- تكرار لفظ الجلالة وحذف حرف العطف

ولنعد مرة اخرى نقرأ بتؤدة وتفكّر هذه السورة المباركة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾. فيدهشنا الوصف الجميل والترتيب البديع في هذه الآيات المتناسقة تناسقاً دقيقاً معجزاً. لا يمكن إن يعتريها خلل، والمترابطة ترابطاً دلالياً في اللفظ والمعنى بصورة تأخذ بمجامع القلوب، وتهيمن على النفوس فتنقاد اليها خاشعة لسلطان هذا النظم العجيب. بدأت السورة -كما قلت من قبل- بذكر الالوهية التي تقتضي التفرّد، وأن لا شيء غيره معه، فذكر الأحدية، أحدية الوجود، ونفي المشاركة والمماثلة، فليس هناك وجود حقيقي إلاّ وجوده سبحانه وتعالى، وكلّ موجود آخر إنما يستمد وجوده من وجوده تعالى، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية[٣]. وبعد ذلك تطلّب السياق أن تذكر صمديته المقتضية لاستغنائه الذاتي عمّا سواه وافتقار جميع المخلوقات اليه في وجودها وبقائها وسائر أحوالها ومما يزيد التناسق بين ألفاظ الآيات جمالاً، والترتيب بينها روعة تكرار الأسم الجليل، فقد أعيد مظهراً ولم يضمر بعد ما تقدم مظهراً وخلوّ الآية من حرف العطف. إن سبب تكرار لفظ الجلالة ((اللّه أحد. اللّه الصمد)) هو ما يقتضيه السياق، وذلك لتكون كلّ جملة مستقلة بذاتها، وغير محتاجة الى ما قبلها[٤]. زد على ذلك أنّ أظهار الاسم الجليل بعد ماتقدّم مظهراً آكد في التعظيم والتفخيم، ولمعنى التعجب الذي فيه[٥]. وهذا مثل قوله تعالى ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المزمل-٢٠) وقوله تعالى ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (النور-٤٥) فحق

---

(١) ينظر :التحرير والتنوير ص٣٧٢.

(٢) ينظر : تفسير الرازي ١٨٢/٣٢ - ١٨٣، وروح المعاني ٥٨٣/١٠.

(٣) ينظر :في ظلال القرآن ٧٠٢/٨.

(٤) ينظر :اسرار التكرار في القرآن - للكرماني ص٢٢٧.

(٥) ينظر : مشكل اعراب القرآن ٨٥٣/٢.

هذه الأسماء أن تعاد مضمرة لكن اظهرت لما ذكرنا. أما تعرية الآية عن حرف العطف، فلأنها كالنتيجة للآية الاولى، أو الدليل عليها.

جاء في حاشية الشهاب على البيضاوي : ((فهي جملة مستأنفة، أو مؤكدة وإن كانت من وجه تشبه النتيجة ومن وجه تشبه الدليل. أما الأول فلأن الالهية والأحدية توجبُ احتياج جميع ما سواه له، فأشبه النتيجة في اللزوم لما قبله. وأما الثاني: فلأنّ مَن كان غنياً لذاته، محتاجاً له ما سواه، لا يكون إلاّ واحداً وما سواه لا يكون إلا ممكناً محتاجاً اليه، فلعدم الانفكاك كان كالدليل له ؛ ولذا قال كالنتيجة، ولم يقل نتيجة لأنها تعطف بالفاء... وهذا بناء على أنّ الصمدية توجب الأحدية، فهي من وجه نتيجة ومن وجه آخر دليل))(١).

– قوله تعالى : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾

ولو أمعنا النظر في هذه الآية الكريمة، وتأملنا في الاستعمال القرآني لألفاظها وعرفنا سبب وضع كلّ لفظة في الموضع الذي يقتضيها في هذا المقام. حيث قدّم ((لم يلد)) على قوله ((لم يولد)) واستعمل أداة النفي ((لم)) من دون غيرها، وتلمسنا التناسب الدقيق بين ألفاظها ومع ما قبلها وما بعدها، مع استذكارنا لسؤال الذي وُجّه الى النبي ﷺ. اقول : لو أمعنا النظر في ذلك لأدركنا بعض السر الذي بهر أهل اللغة والبيان الذين عاشوا نزول القرآن الكريم وأعجزهم. ويبقى يعجز الخلق أجمعين الى ان يرث اللّهُ سبحانه الارض ومن عليها. ومن ثمّ يزداد القلب يقيناً، فتنطق كلّ خلية في الجسم إنّ هذا القرآن ليس من كلام البشر بل هو كلام ربّ البشر عزّ وجل. قدّم قوله ((لم يلد)) على قولهِ ((لم يولد))، ومن المعلوم أن المولودية في المخلوقات اسبق من الولدية، ولكنّ السياق هنا اقتضى ذلك، لأنّ من الكفار مَن لدّعى أنّ له ولداً ولم يدّع أحد انه مولود(٢)، لذلك قدّمها، ثم قال : ((لم يولد))، أي : كما ولد المسيح وعزير. ونفي ذلك ابطال لمزاعم المفترين في حق الملائكة والمسيح فهو لم يلد، أي : لم يصدر عنه ولد، لانه لا يجانسه شيء، لأنه واجب وليس ممكناً، فلا يمكن أن يكون له من جنسه صاحبة فيتوالد، ومن المعلوم أن الولادة تقتضي

---

(١) ينظر : حاشية الشهاب ٨/٤١٢–٤١٣.

(٢) ينظر : روح البيان ١٠/٥٣٩.

انفصال مادة عنه، وذلك يقتضي التركيب المنافي للأحدية أو الصمدية. وهو ((لم يولد)) أي لم يصدر سبحانه وتعالى عن شيء لاستحالة نسبة العدم اليه سابقاً او لاحقاً. فالمولودية تقتضي المادة فيلتزم التركيب المنافي لأحديته وصمديته (١).

وأنظر الى النفي المستعمل في هذه الآية، تجد أن النفي كان في الماضي ولم يكن في المستقبل، وأنّ أداة النفي المستعملة هي ((لم)) دون سواها من أدوات النفي كـ (ما) مثلاً التي تستعمل ايضاً لنفي الماضي.

أقول : إنّ الاقتصار على النفي في الماضي هو ردُّ على مَن زعموا أنّ ذلك كان في الماضي، ولم يزعموا أنه يكون في المستقبل ولذلك لم يقل : ((لن يلد ولن يولد)).

أما استعمال ((لم)) بدلاً من ((ما))، فقال : ((لم يلد)) ولم يقل ((ما ولد)) فلأن ((ما)) وإن كانت تنفي الفعل الماضي مثل ((لم)) فنقول ((ما ذهب)) و ((لم أذهب)) إلا إن هناك فرقاً بينهما، وهو أنّ الماضي المنفي بـ (ما) يكون في الغالب لنفي الماضي القريب من الحال، وأما (لم) فليست مقيدة بزمن من ازمنة الماضي. وقد يكون النفي فيها مستمراً لم ينقطع ولا ينقطع(٢)، ولذلك قال : ((لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُواً أحد)). زد على ذلك ((إن هناك فرقاً بين دخول ((ما)) على الماضي ودخول ((لم)) على المضارع من ناحية اخرى، وهي أنّ الماضي يدلّ على أنّ الأمر قد انقضى، وأما المضارع فإنّه قد يدلّ على التكرار والتجدّد والتطاول فقولك : (كَتَبَ) يدّل على انتهاء الحدث وأنقضائه، وقولك : (يكتب) يدّل على تجدّد الحدث واستمراره، فإذا دخلت (ما) على الماضي دلّ على انتفاء الحدث بصيغة المضي، وإذا دخلت (لم) على المضارع دلّ على انتفاء الحدث في المضي لكن بصيغة التجدّد والاستمرار. فدخول (لم) يدّل على أن الحدث لم يحصل في الماضي على تطاول المدة واستمرارها))(٣). ولهذا السبب استعمل حرف النفي (لم) في هذه الآية ليدل على عدم حصول ما ادعوه من افتراء على الله جلّ وعلا حينما نسبوا اليه الولدية واستمرار نفي ذلك. وهذا ما اقتضاه المقام هنا، ولو استعمل غير (لم) من حروف النفي لما أدّى المعنى المطلوب والله أعلم.

---

(١) ينظر : حاشية الشهاب ٤١٣/٨.

(٢) ينظر : معاني النحو ٥٧٠/٤.

(٣) ينظر : معاني النحو ٥٧١/٤.

– تقديم معمول خبر (كان) وخبرها على اسمها

قال تعالى ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾، أي : لم يكن له مثيل من خلقه، ولا شبيه له في ذاته وصفاته، وهذا ((الكلام جامع لنفي كلّ ما هو من سمات الحوادث، وهو مثل قوله تعالى ﴿ليس كمثله شيء﴾ (الشورى–١١)، وهذه الجملة كالتذييل لما قبلها لقصد جمع معنى التنزيه له تعالى، ولذلك نفى بصيغة الماضي جرياً على طريقة نفي ما قبله))⁽¹⁾.

واللافت للنظر في قوله تعالى ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ هو تقديم معمول خبر كان الجار والمجرور (له)، والخبر (كفواً) على اسمها (أحد)، وتقديم معمول الخبر على الخبر، والأصل في الكلام أن يراعى فيه الترتيب، أي : أن يؤتى بالفعل الناقص، فأسمه، فخبره، فمعمول خبره، كما في قولنا : (كان محمدٌ معتكفاً في المسجد) حيث جاء الفعل الناقص (كان)، فأسمه (محمد) فخبره (معتكفاً) فمعمول خبره (في المسجد). وعلى هذا فالكلام في الآية الكريمة كان يقتضي أن يكون (ولم يكن أحدٌ كفواً له). لكن جاء على غير هذا التأليف وما كان ذلك ليكون إلاّ لغرض معنوي يقتضيه المقام وسياق القول ومن المعلوم أنّ كلّ تقديم وتأخير في الكلام لا يكون إلاّ لمعنى مطلوب، ولعلّ أشهر اغراض⁽²⁾ التقديم هو الاختصاص والعناية والاهتمام، فمثلاً في قولنا السابق (كان محمدٌ معتكفاً في المسجد) يحتمل ان يكون محمد معتكفاً في المسجد، ويحتمل ايضاً أن يكون معتكفاً في غير المسجد فضلاً على أنه ليس في الكلام إلاّ الاخبار بأن محمداً معتكف في المسجد، وأن مدار الكلام على محمد. لكن إذا قلنا (كان في المسجد محمد معتكفاً) كانت الاهمية في الحديث للجار والمجرور، حيث خصص مكان الاعتكاف في المسجد لا في غيره. ولو نظرنا في الآية الكريمة وعلاقتها بما قبلها لوجدنا أن المقام وسياق الكلام يقتضيان هذا التقديم. أعني تقديم معمول الخبر، والخبر على الاسم، فقد جعل سبحانه وتعالى هذه الآية خاتمة لما قبلها، فبعد أن ذكر ألوهيته، وقرّر وحدانيته، وأنّ مآل الكون والخلق اليه، وأنّه منزّه عن مشابهة المخلوقات له ومماثلته لقدمه وأزله، ولا نظير له في صفاته وأفعاله ختم

---

[1] ينظر : التحرير والتنوير ص٣٧٣.

[2] ينظر : اشهر معاني التقديم في معاني النحو ٢/١٦١ وما بعدها، والتعبير القرآني ص٤٨ وما بعدها.

السورة بهذه الآية، وقدّم معمول الخبر (له)، لأنه مدار الاهتمام والتخصيص. فالمقصود نفي المكافأة عن ذاته تعالى والتي هي مصبُّ المعنى للذي سيق له النفي..

قال الزمخشري : ((فإن قلت : الكلام العربي الفصيح أن يؤخّر الظرفُ الذي هو لغو غير مستقر ولا يُقدّم، وقد نصّ سيبويه على ذلك في كتابه. فما بالهُ مقدّم في أفصح كلام وأعربه ؟ قلت : هذا الكلام لإنما سيق لنفي المكافئة عن ذات الباري سبحانه، وهذا المعنى مصبه ومركزه هو هذا الظرف، فكان لذلك اهم شيء وأعناه وأحقه بالتقديم وأحراه))(١). فلو أخرّ الجار والمجرور في غير القرآن، وقيل ((ولم يكن أحد كفواً له)) لاختل المعنى وفات المطلوب منه ؛ لأنّ الكلام وإن كان ينفي المكافأة عن الخالق سبحانه وتعالى لكن لم ينفها عن غيره، فبالتقديم نفي أن يكون له كفو ونفى أن يكون له شريك ومثيل. وهذا هو سبب التقديم..

وبعد هذه الرحلة المستعة في رحاب سورة الاخلاص المباركة، أقول : مهما كتب في هذه السورة ويكتب فان أرضها لا تزال بكراً، ويبقى روضها لا تشذبه تواليف العلماء وأقلام الدارسين وأن ما ظهر منها وما بطن، وما قيل لا يكفي في الكشف عن اسرارها أو كنوزها، أو يقنع بالاحاطة بها. ولا أملك إلاّ ان أقول : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ (النساء–٨٢) وما أجمل قول القائل : ((لا جرم أنّ القرآن سرُّ السماء. فهو نور اللهِ في أفق الدنيا حتى تزول ومعنى الخلود في دولة الأرض الى أن تدول))(٢).

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

---

(١) ينظر : الكشاف ٤/٨١٨-٨١٩.

(٢) ينظر : تاريخ أداب العرب – للرافعي ٢/١١.